

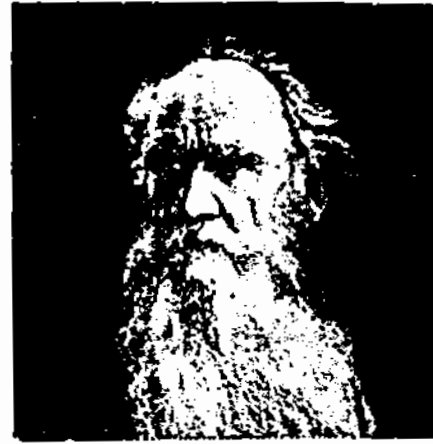
الأدب في سير أعلامه :

٤ - تولستوي ... !

[فة من القسم الثوامع في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

غلام نابذ



كان كلما اقترب
ليو من إخوته
سمهم يتحدثون عن
موسكو وعن
الرحيل إلى موسكو
فيرفع بصره إلى
وجوههم يتبين هل
نمة فيها شيء من
المهم لقرب هذا

الرحيل ؟ فإن المهم ما يبرح بهجس في خاطره منذ أن علم بقرب
انتقالهم إلى موسكو ؛ ولكن الغلام لا يجد في وجوههم أية أمانة
لذلك التي يمتلج في نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى
موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلح إلى الرحيل أو يشير إليه ،
ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها
إخوته بين أيديهم فرحين ؛ وإنه ليشاركهم فرحهم بها وما ينتقم
منها إلا أنها سوف تلبس في موسكو ؛ فما قريب يرحل مع
إخوته ليتعلموا في تلك المدينة الكبيرة ؛ وإنه ليعجب كيف
يطبقون الرحيل عن يا سنايا بوليانا فيتحدثون عن ذلك الرحيل
صاحكين مستبشرين ويقع الحديث من نفسه موقفاً أليماً .

وهل كان يطبق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن
هاتيك الغابات القريبة التي أحباها وألف الرح في أرجائها ؟ وهل
كان يطبق البعد عن الممة تانياً وهو لا يجد له أمأ غيرها ؟ ومن
ذا يكون صريه في موسكو مكان تيودور رويسل ؟ وهل هو
واجد في موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها ؟ أيطبق

ألا يرى الخدم الذين أحبهم وأحبوه والخليل وكلاب الصيد التي
أولع بها وأحب أن يراها كل يوم ؟ ولكن ما من الرحيل بد
فليس له إلا أن يصبر عليه ... بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه
أو بهذا كانت تحدثه نفسه .

وحان يوم الرحيل ؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به
وبأخوته العربة إلى موسكو فما يجدر به أن يبكي وهو ابن ثمان ،
وهؤلاء إخوته حوله لا يبكون بل لا يكثرثون لشيء كأنما هم
ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد في النابة !

ونظر الغلام في موسكو إلى صريه الفرنسي الجديد سنت توماس
فإذا هو تلقاء رجل لا يحس في وجهه ما كان يحسه في وجه
تيودور رويسل من عطف وعبة وإخلاص ، وما لبث أن وجده
يسنف عليه كأشد ما يكون العنف ، فيحبسه في حجرة ويتهدده
بالمصا ، الأمر الذي أغضبه أشد الغضب وكره إليه النظرة والعنف
ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته ؛
كتب بعد ذلك في مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال « حبسني
سنت توماس أولاً في حجرة ثم جاء يتهددني بالضرب بمصا ،
ولست أذكر الذنب ولكنه كان أماً لا يستحق العقاب البتة ؛
وعندئذ ذقت شهوراً خفيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار
والاستمزاز ، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب ، ولكن
نحو القدوة التي يتهددني بها كذلك » .

وأكبر الظن أن صريه ما فعل هذا إلا لإيهاله وانصرافه عن
الدرس ، وعناده إذا دعاه إلى العمل ؛ ولم يتجن عليه سنت توماس
فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن إخوته فقال : « يرغب نيقولا
في الصلم ويقدر عليه ، ويقدر سيرجي على الصلم ولكنه لا يميل إليه ،
ويميل ديمتري ولكنه لا يقدر ، أما ليو فإنه لا يميل ولا يقدر »
ولكن صريه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة
فيه عبر عنها بقوله « إن لهذا الغلام رأساً ... إنه مولير صغير » .
وماذا كان في رأسه يومئذ حتى يسميه صريه هذا الاسم ؟
لعل مراد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقمان عليه ، ونفاذ بصيرته إلى
أفعال إخوته ولذاته من التلاميذ وتقطعه إلى خصائص كل منهم ،
فالغلام على حدائته يقطر مرهف الحس ، دقيق الملاحظة للناس
وللأشياء جميعاً .

وهو وإن لم يتجاوز الثامنة بعد ، تطوف بقلبه الفص ماطقة

لينقل بصره بين وجوه السارة في شوارع موسكو بتوقع أن تقع عيناه على أبيه ، وظل هذا الخيال بضعة أشهر متسلطاً عليه .

ويفكر الغلام مرة ثانية في الموت والحياة ، فقد تفكر في ذلك حين أدرك أن عمته تانيانا ليست أمه وعلم من نيقولا بموت أمه ؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شيء كرهه مخيف ، ولكنه لم يدرك كنهه ، وهو كذلك يحس اليوم مثلاً أحس بالألم ، وإن كان يصحب إحساسه هذه المرة شيء من التفكير والدهشة ، وسيظل هذا شأنه كلما نظر في الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشيء الكره المخيف وهو لم يمد من طول النظر في أمره بشيء .

ولم تكدهمضي تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته عزوثة على أنها ؛ وجاء الربي يحمل النبأ إلى الصبية وهم يلعبون ، فانقلب مرحهم وزياطهم وجوماً وسكوناً ، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينه يسمع ويرى ، فسك كره مرأى الخانوية على مقربة من البيت في ملابسهم السوداء ، وكتم بث في نفسه الخوف رؤية الثابت بين أيديهم ووجوههم كثيفة غابسة من أثر ما يتكفونونه من الحزن ؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته وبما يسمع من عبارات الرضاء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم ؛ ولقد تندت عيناه ذات مرة متأثرة بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها « إنهم اليوم أيتام كل اليم فقد مات أبوم منذ قليل ، وهامى ذى جدتهم كذلك يأخذها الموت » .

وينظر الصبي إلى حلتاه السوداء المخططة الخواقي بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته وقد صنعت لهذا الغرض خاصة وبمجيئه منظره في هذه الحلة فينسى بعض ما يحسه من حزن .

وللغلام في هذه السن الباكورة اشتغال بما يمد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كان في مثل سنه ، وذلك هو نظره في الدين ومسائله ، ولندع تولستوى نفسه يتحدث عن ذلك قال في مسهل كتابه « اعترافاتي » إلى أذكر كيف زارتنا ذات يوم من أيام الآحاد في الحادية عشرة من عمري غلام يدعى فالمرير موليتين كان في إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سمع أحدث الطرائف من الأنباء ألا وهو كشف اتفاق وقوعه في مدرسته ، ومؤدى ذلك الكشف أنه ليس لهذا العالم إله ، وأن كل ما لقناه عنه إن هو إلا بعض اختراع . وإلى لأذكر مبلغ ما داخل إخوتي

الحب ، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذي يحسه نحو العمة تانيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم ، وإنما كان حباً كذلك الحب الذي قلما خلا منه قلب فتى أو فتاة في ربيع العمر ؛ ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه الماطفة في مثل هذه السن الباكورة دليلاً على الموهبة الفنية ، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون في غده من الأفذاذ ...

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التي عاشت بين أفراد الأسرة في كنف عميدها الكونت وكانت تسمى اسلنيف ، وأحب في موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من آل بوشكين ، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان يعتقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاه من فرط إحساسه بعاطفته ؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره في العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سونشكا ، وكان يشمر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق ، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته ، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق صادقة خالصة الصدق بريئة من كل شائبة أو غرض ، حتى لقد اتخذها في مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره ...

أما اسلنيف فكان يغار عليها كأشد ما تكون الفيرة ، لا يطيق أن تحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تتجده حتى ينظرها إليه ، وكان يمسف عليها ويهصف في وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلاً إلى غيره حتى إنه دفعها مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد بانث بها الجراءة أن كلمت غلاماً أمامه فسقطت ولحق بها المرح من جراء ذلك بضع سنين ، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التي غدت سيدة أنجبت بنات وبنين ، وأصبحت أم زوجته فقالت له ضاحكة تذكره بذلك الحادث « أكبر الظن أنك دفعتني من الشرفة إبان طفولتي لكي تتزوج بابنتي فيما بعد » .

وذاق الغلام في موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب ، فقد مات أبوه وكان في طريقه إلى مدينة توليا في صيف سنة ١٨٣٧ وسقط في الطريق جماً لا حراك به ، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب ، وآخرون يهيمون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملك يداه ؛ وبسلسط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحس أن أباه حي لم يموت ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه في ياسنايا بوليانا ؛ وإنه

فانتزع شعرها بملقط كي يشتد بعد ذلك نغائوه فيكسب ملاءمة مظهرها عاطفياً شعرياً ، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بباطل الأمر الذي تنهض عنده العيش .

ولقد جاء في كتابه « عهد الطفولة » قوله « كنت أعلم حق العلم أني لم أك حسن النظر ، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتي تسيء إلى إساءة مؤلة ، واقد مرت في لحظات تملكني فيها اليأس وخيل إلى أنه لا يمكن أن تنهيا السمادة على هذه الأرض لمن كان له أنف كأنني المريض وشفتان كشتفتي النليطتين وعينين كمينى الصنيرتين الشهابوين ، وسألت الله أن يحدث معجزة فيجعلني وجهها فأني لأجود بكل ما هو لدى وبكل ما عسى أن أظفر به في المستقبل في سبيل وجه حسن » .

وفي صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام في موسكو مشهداً استقر في نفسه فلم يرحها حتى ظهر أثره في أحد أوصافه فيما بعد في قصته الكبرى « الحرب والسلام » إذ وصف موكباً من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات تلك القصة ، أما المشهد الذي رآه الغلام وجملة مثاله فيما كتب من وصف فهو موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول في بناء كنيسة أقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون . ولم يطل بالغلام المقام في موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى يا سننا بوليانا ليكونا في رعاية العمة تاتيانا ، وبقي الأخوان الكبيران في موسكو ترعاهما الكونتس أوستن سيكن عندهما على الحقيقة ؛ وكانت الكونتس أوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية سالحة لله في السر والعلن وتنفق مالها في سبيل الله فلا ترد فقيراً ولا تتسكرو لذي حاجة ، وكانت بالخدم رحيمة عطوفاً تسكره أن توظفهن إذا آوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة ؛ وكان أثرها عميقاً في نفس الغلام فكان يشعر بحوها من الأجلال والأكبار بقدر ما كان يشعر بحو عمته تاتيانا من المحبة ، ولئن علت العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس في الحب فقد أوحى إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين ولكن هذه العمة قضت بحبها في خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على الأخوة جميعاً لعمة أخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوي الثراء من الملاك في قازان ، وتم فقد نقل الصبية جميعاً إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع ١٨٤٧ ؛ على أنهم كانوا يفتنون أجازاتهم الصيفية في ضيعةهم المحبوبة بناحية يا سننا بوليانا .

القصيف

(ينبح)

من سرور عند سماع ذلك ، لقد دعوني إلى بحاسهم وأذكر أننا جميعاً شعرنا شعور النشوة لهذه الأنباء ، وثاقيناها كأمر سار تمتع ممكن الحدوث كل الأماكن » .

وعرف الغلام منذ حداثة بقوة البدنية وحيويته المتوثبة ، تبين ذلك من حادثة قصصها أخته وموداها أن أخاها نزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما فظل ماشياً حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يمدو عدواً سريعاً كيلا تدركه وإخوته في العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه ؛ ولم يتقطع نفسه إلا بعد ميلين فصعد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول أن يخفي تعبته ؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما يفتابه أحياناً من أسقام وآلام حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين .

وكان ليو منذ صغره مولعاً بركوب الخيل ، وقد تعلم الركوب في سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه في ذلك ؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانهما يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطي جواداً كما فعلوا فإذا به يمد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويمسك ببجته ، فلما أعيد إلى حيث كان لم يبد عليه شيء من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يمدو وهو ثابت فوق صهوة ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب .

وفكر الغلام ذات يوم في أمر : لم لا يطير كما تفعل الطير ؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة ؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائراً فيسبح في الجو كما تسبح الطير ؛ وإن في نفسه منذ صغره ليلاً إلى أن يضع ما بهجس في خاطره موضع الاختبار ، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر في مواطن كثيرة ؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها في سبات عميق فيفتح عينيه دهشاً متحيراً يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره ما يحس من ألم من مفاسله وأضلاعه .

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث ، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيته ، ومن ذلك أنه خلق شعره ذات مرة بالموسى لعل في ذلك إصلاحاً لشكله ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال ، وعمد إلى الشطنجمل به ذلك الشعر في موضع خاص لعل في ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة ولفظه في هيئة الهموم المفكر على نحو ما يظهر يرون . وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه